مقدمة

من تناقضات حياتنا العقلية المحيرة ما نلمسه من قوة وعمق اعتزاز الشعب المصرى بتاريخه ، إلى حد الوصول إلى مرحلة يمكن تسميتها « عبادة الماضى » وفى نفس الوقت يتسع نطاق الإساءة إلى التاريخ المصرى، على أيدى مصريين ، ويلقى ذلك استجابة لا بأس بها لدى عامة الناس وخاصتهم .

ليس الأمر أن الشخصية المصرية – بطبيعتها – قابلة للجمع بين المتناقضات فى كيان واحد ، ولكنه من تأثير حملات منظمة ، أو شبه منظمة ، تعزف فيها جوقة متكاملة من الكتاب والمتحدثين ألحانًا فيها تنويعات شديدة البراعة لغرس الكراهية فى نفوس المصريين لكل مرحلة من مراحل تاريخهم ، دون استثناء .. وهذه ظاهرة قديمة منذ العصر الفرعونى ، حيث نرى فى آثاره ما كان يبذله أصحاب المصالح فى كل مرحلة ونظام ، للإساءة إلى المرحلة والنظام السابقين وتشويه ما كان معتبرًا من مفاخره وأمجاده ، والسعى – بفنون عديدة وبراعة نادرة – لتحويل صورة أبطال كل عصر فى الذهن العام إلى مجموعة من الخونة والمرتشين والمتآمرين، فلا يبقى فى الوجود إلا العصر القائم وحده وكل ما قبله خراب، ولا يعلو ذكر أحد إلا قادة الحاضر . وتتحول ذكرى من كانوا أبطالاً فى الماضى إلى شواهد أشبه بالشاهد الذى نطلق عليه « إبليس » ، عند العقبة الكبرى ، والذى يمثل رمى الحجارة عليه ركنًا من أركان فريضة الحج .. كذلك أصبح ركنًا من أركان الإخلاص لكل نظام حالى أن تلعن كل نظام سابق ، وركنًا من أركان الولاء للزعيم الحى أن تشوه الزعيم

الراحل ، ولا أظن لأن الأمر يمكن تفسيره باستشراء النفاق فقط ، بل لابد أن نتعمق أكثر في تفسير هذه الظاهرة .

* * *

ربما يكون ضمن عوامل نشوء هذه الظاهرة ما كان يحرص عليه ملوك الفراعنة من أن يكون كل منهم هو الوحيد الذى سجل للتاريخ المصرى انتصارات أقرب إلى المعجزات ، وكان رمسيس الثانى أكبر مثال لذلك ، إذ لم يكن يتعب نفسه فى كتابة واختراع أمجاد وانتصارات لنفسه ، بل كان يمحو أسماء الملوك ويضع اسمه مكان اسم كل من حقق انتصارًا أو إنجازًا قبله حتى بدا – وفق ما هو مسجل على جدران المعابد وفى النقوش ، صانع الانتصارات فى كل العصور .. !

وقد يضاف إلى ذلك أن الطبيعة البشرية تهيئ لكل حاكم مجموعتين جاهزتين دائمًا تحت الطلب، الأولى مجموعة الباحثين عن سلطة أو منصب أو ثروة ويتعاملون مع كل عصر وكل حاكم بمنطق: (أنت تدفع ونحن نزور) أو(بقدر ما تعطينا نعطيك) وعلى أيدى أمثال هؤلاء أصبح تزوير التاريخ علمًا وفنًا، بل تحول مع الزمن إلى صناعة رائجة من أقدم الصناعات المصرية، وصار له – مع الزمن – خبراء، وأساتذة ، وجهابذة .

أما المجموعة الثانية الجاهزة لكل عصر وكل حاكم لتقديم خدمات التزييف والتزوير فى ثوب متقن، فهم الذين أضيروا من العهد السابق، وعاشوا فيه صامتين على مضض، أو مؤيدين خضوعًا للأمر الواقع ومن وراء القلب.. كانت لهم عزة وعزوة ثم انكشف عنهم الغطاء، فلما زال العهد تصوروا أن الأمر يمكن أن يعود لصالحهم إذا طبقوا قاعدة «عدو عدوى هو صديقى» فانطلقوا للثأر لأنفسهم من العهد الذى أضيروا فيه، وللتقدم

بشهادة تثبت حسن السير والسلوك تعطيهم فرصة الاندماج، والاستفادة، واستعادة المكانة فى العهد الجديد .

* * *

الأمثلة كثيرة على ما فعله ويفعله ممثلو الجماعتين . وأقرب مثال عايشناه ونعرف نجومه واحدًا واحدًا من بقايا مرحلة ما قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ . ظلوا طوال حكم عبد الناصر صامتين، بعضهم أرسل برقيات تأييد للزعيم الملهم منقذ البلاد من فساد الحكم الملكى .. وبعضهم انخرط فى الحياة السياسية والاجتماعية داعين للثورة وقائدها ، وما كاد عبد الناصر يتوارى حتى خلعوا الأقنعة ، وتكلم الصامتون منهم . وكشف المناورون حقيقة مشاعرهم ، وبدءوا فى الهجوم على ثورة يوليو هجومًا ضاريًا استخدموا فيه الأسلحة المحرمة أخلاقيا ، ودينيا ، وسياسيا ، ليجردوا هذه الثورة من كل إنجاز ..

يقال لهم إن الثورة حققت جلاء الاحتلال البريطاني عن مصر— فيقولون إن ذلك كان خطأ.. لأن الاحتلال كان سيرحل من تلقاء نفسه فلم تفعل الثورة إلا أن بددت ثروة وطاقة الأمة فى معركة سياسية لا لزوم لها .. !

ويقال لهم إن الثورة أعطت السودان حق تقرير المصير فأكدت أنها تقود دولة متحضرة تحترم إرادة الشعوب، ولا تفرض الوحدة قسرًا، مع أنها ناضلت من أجل الوحدة، لكن الوحدة عندها لا تفرض فرضًا على شعب، ولابد أن تأتى نتيجة حتمية لطبيعة الجغرافيا ، ووحدة التاريخ، وضرورات الاستراتيجية ، بل وضرورات الوجود ذاته ، وهذا منطق يتفق مع العقل والمنطق .. فيقولون إن الثورة ارتكبت جريمة لا تغتفر حين (تنازلت) و (ضيعت) السودان !

ويقال لهم إن الثورة سعت سعيًا جادًا إلى تحقيق العدالة الاجتماعية وأفسحت للفقراء الطريق ليتعلموا مجانًا، فظهر فيهم نبوغ جعل منهم علماء

وأطباء ومهندسين وقادة سياسيين ، فيقولون إن هذا كان الخطأ الأكبر لأنها بددت الأموال لتشجيع (السفلة) و(الغوغاء) على التطاول على (الأسياد) وقلبت الهرم الاجتماعى فجعلت ابن البواب عالمًا وطبيبًا ومهندسًا ، وكان يجب أن يظل الطريق الوحيد أمام ابن البواب أن يكون بوابًا ، وأمام ابن الفلاح أن يكون فلاحًا ، وهكذا ..

ويقال لهم إن الثورة أقامت السد العالى الذى حمى مصر من الجفاف والعطش ثمانى سنوات متصلة – وما زال يحميها – ولولا ما أضافه إلى رصيدها من المياه ما كان من الممكن استصلاح أراض جديدة ، فيقولون إن السد العالى كارثة لأنه منع الطمى وأدى إلى اختفاء (السردين) .. !

ويقال لهم إن الثورة أقامت عشرات المصانع وبدأت تحقيق حلم (مصر الصناعية) وأقامت أول مفاعل نووى فى المنطقة ، وأنشأت مراكز للبحث العلمى أعدت جيلا من العلماء يعرفهم العالم ، فيقولون إن ذلك كان خطأ لا يغتفر ..!

ويقال لهم إن الثورة لها فضل إحياء الفكرة القومية وقضية الوحدة العربية ، وأن الأيام تثبت أن العرب إذا لم يتوحدوا يمكن أن يتحولوا إلى شظايا ، ويمكن أن تتداعى عليهم الأمم (كما يتداعى الأكلة على قصعتها) كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فيقولون إن (مصر الصغرى) هى الأقوى ، بدلا من أن تبدد الثورة ثروة مصر على أشقائها العرب !

كل شىء خطأ !

حرب على ثورة يوليو بأسلحة مشتركة.. فرق من الخارج وفرق من الداخل، مع أن مرحلة (الشرعية الثورية) قد انتهت، وغادر قادة هذه المرحلة مقاعدهم وابتعدوا عن التأثير فى الأحداث، ولم يتبق منهم إلا الذكرى، وتصفية الحسابات معهم، ومع الثورة كلها، أمر مفهوم،

أما الإساءة إلى تاريخ شعب بأكمله لإرضاء شهوة الانتقام فهذا ما نخشى عواقبه.

ولم ينجُ أنور السادات من هذه الحرب الشاملة ، فهناك من كرسوا جهدهم لإظهار عهده على أنه ليس إلا سلسلة أخطاء متصلة ، وكأنه لم يتحقق شيء يمكن أن يذكر بالخير لعهده ، مع أن حرب أكتوبر وحدها ، يمكن أن تغفر الذنوب جميعًا !

حرب أكتوبر – في التاريخ الحديث – نقطة تحول بالغة الأهمية ليس على المستوى العسكرى فقط، مع أن ما تحقق فى ميدان القتال فيه الكثير من الإبداع المصرى الذى سجله التاريخ، وتشهد على ذلك دراسات مراكز البحوث الإستراتيجية الكبرى، ومع ذلك لم تسلم هى الأخرى من حرب التشويه والإساءة،مرة بإنكار الانتصار المصرى كلية وهذه درجة من (الوقاحة التاريخية) لاتستحق الرد، وإما بتقديمها بأقل كثيرا من حجمها الحقيقى، وكأن هناك فئة تتوارى وراء مبررات وادعاءات واهية، هدفها الحقيقى سلب الشعب المصرى حقه فى الاعتزاز بالنصر الذى حققه فى هذه الحرب، وقدم ثمنا له أرواح شهداء لهم فى الوجدان المصرى مكان كبير.

ما كل هذه الحروب على المعالم الأساسية للتاريخ المصرى الحديث .. أهى حرب على أشخاص القادة ..؟ أم هى حرب على كل ما تمثله ٢٣ يوليو وكل ما – ومن – جاء بعدها ..؟ أم هى حرب على الشعب المصرى، لكى يفقد الثقة بالنفس ، ويمضى فى الحياة مسلوب الإحساس بالكرامة ومجردًا من الاعتزاز القومى ؟

يعزز الاحتمال الأخير أن الحرب لم تقتصر على التاريخ السياسى . ولكنها امتدت إلى التاريخ الاجتماعى والحضارى والثقافى للشعب

المصرى ، ولأن اليقظة فى هذه الميادين سابقة على ٢٣ يوليو فإن الحرب شملت زعماء الإصلاح منذ بدايته ، فلم يسلم من حملات التشويه الإمام محمد عبده ، ولا الشيخان مصطفى عبد الرازق وعلى عبد الرازق ، ولا قاسم أمين .. ولا أمثالهم .. كما لم يسلم الزعماء أحمد عرابى ، وسعد زغلول ، ومصطفى النحاس وأمثالهم ..

* * *

أليس هذا أمر يلفت النظر ، ويستحق اليقظة ؟

أليس غريبا أن نجد من يدعونا إلى التنصل من جزء من ماضينا ، ويدس فينا الإحساس بالخجل من الانتساب إلى مراحل هى فى المقياس الصحيح موضع اعتزاز وفخر .

وهل هناك أمة يمكن أن تعيش بلا تاريخ ؟ أو أن ينمو شباب بلا قدوة ومثل عليا من رجال الماضى والحاضر ..؟ وانظروا إلى العالم لتروا كم يمجدون رجالهم ..

انظروا إلى حجم التمجيد الذى تمتلئ به الكتب المدرسية والأدبية والأعمال الفنية فى أمريكا عن قادة من أمثال جورج واشنطن، أو ابراهام لنكولن، أو ويلسون، أو روزفلت وغيرهم كثير. وانظروا كيف يدرس الفرنسيون باحترام شديد أعمال وسيرة حياة رجال الثورة الفرنسية مع فظاعة ما ارتكبته هذه الثورة، ثم انظروا كيف يدرس البريطانيون زعماءهم حتى الذين فشلوا منهم مثل كرومويل الزعيم الذى مات مشنوقا باعتباره متمردًا وخارجًا على سلطة الملك ، وانهزم فى النهاية، لكنهم يقدرون أن ثورته —الفاشلة— هذه كانت نبيلة فى مقصدها من أجل الديمقراطية والحد من سلطة الملك المطلقة، وإن كانت قد فشلت إلا أنها فتحت الطريق.. وبدأت صفحة مشرقة للديمقراطية وحكم الشعب فى التاريخ البريطانى .

طبعًا هناك من يحلل أعمال كل هؤلاء الزعماء ويوجه إليهم النقد ، ويكشف العيوب ، ويذكر السلبيات ، ولكن ذلك يحدث فى إطار تقدير للدور والمكانة ، وليس فى إطار إهدار الكرامة الشخصية للزعماء كما يحدث من بعض الأقلام عندنا ، وليس بالكذب على التاريخ بادعاء أن كل زعيم لم يكن إلا خائنًا ، أو متآمرًا ، أو مفرطًا فى حق الوطن ، وهى اتهامات كبرى لا ينبغى أن تكال جزافا وبالبساطة التى تتم بها ، بغير أدلة ، ولا وثائق ، بمجرد إطلاق العنان للأقلام باستخدام كل ما فى قواميس الشتائم والاتهامات بالباطل دون أدنى شعور بوخز الضمير .

ما أخشاه أن تكون نتيجة ذلك كله أن يجد الشباب المصرى نفسه فى موقف نفسى صعب ، موقف (اللا يقين) ، وفقدان الثقة ، وما يستتبعه ذلك من القلق الذى يدفع إلى الجنون ، أو الجريمة، أو الانسحاب .. واقرءوا قصة نجيب محفوظ (الطريق) لتروا كيف يشعر الإنسان بالضياع حين لا يجد له أبا ينتمى إليه ، والأب هنا رمز يشير إلى (الأصل) و(الجذر) الممتد فى الزمن ، وإلى الماضى الذى يحتاج الإنسان احتياجا نفسيا لأن ينتسب إليه .. إن نجيب محفوظ يصور ببراعة معجزة كيف قضى هذا الإنسان حياته كلها بحثا عن أبيه ، عن أصله ، عن جذوره ، عن المصدر الذى يستمد منه القيمة ، ويعطى لحياته معنى ، ويملؤه بالكرامة .. وحين لم يستطع العثور عليه ، بعد رحلة معذبة ومضنية ، انتهى به الأمر إلى التمزق ، ثم الضياع ، ثم امتلأت نفسه بالعدوان ، وانتهى به الأمر إلى تدمير الذات ، وتدمير الآخرين .

هذه الرواية العظيمة تصور حقيقة من أعمق حقائق الحياة الإنسانية . هى احتياج الإنسان إلى اليقين، والثقة فى المصدر الذى ينتسب إليه .. هذه الطبيعة هى التى نلمسها فى مدى اعتزاز كل إنسان بأمه وأبيه ، ولا يمكن أن تكون شخصيته سوية ما لم يكن كذلك ، فإذا وجد حوله من يكررون

وبإلحاح أدلة مصطنعة ، وادعاءات باطلة ، تشكك فى سلوك الأم لتدفعه إلى عدم احترامها ، أو تصور له أباه هذا الذى يجله بأنه لم يكن إلا آفاقًا مزورًا لا تجوز عليه إلا اللعنة .. فكيف يعيش مثل هذا الرجل مع نفسه أولاً، ومع الناس ثانيًا، وفي داخله كل هذا التمزق ، والخزى ، والانفصال عن المنابع والجذور ؟ من أين تأتيه الكرامة ، ومن أين تأتيه الثقة ليخوض معارك كبرى أو يناضل من أجل معانٍ نبيلة ..؟

ما أخشاه أن ذلك تحقق بشكل ما، وأعتقد أن هناك أسبابًا عديدة للقلق الاجتماعي، والتوتر السياسى الذى يظهر فى عمليات وجماعات الإرهاب هذه الأيام، بعض هذه الأسباب سياسى، وبعضها اقتصادى، وبعضها اجتماعي، وبعضها ثقافي، ولكن بالإضافة إلى هذه الأسباب كلها، هناك سبب آخر، عميق جدًا، وغائر في النفوس، ويعمل بقوة غير مرئية فى اللاوعي الفردى والجماعي، نتيجة هذه العملية الهائلة لتشويه التاريخ المصرى ورجاله التى تجرى بهمة وقوة فى الساحة السياسية والثقافية، وكان من نتيجتها تشكيك الشباب فى جدوى وقيمة كل ما تحقق من أعمال، وفى كل فكر وشخص.. وها نحن نرى أمامنا علامات اختلال الشخصية ، واهتزاز الثقة ، فى شباب لم يعايش شيئًا من الأحداث التى يشوهونها، وليس لديه القدرة على التمييز بين ما هو صحيح وما هو فاسد من الأحكام التى تطلق ببساطة، وقد تحول بعض الكتاب إلى قضاة، ووكلاء نيابة ،وجلادين،دون أن تكون لديهم أدوات البحث العلمى الصحيح، أوالنزاهة الواجبة، وكان من نتيجة ذلك ظهور ثلاثة تيارات بين الشباب مدمرة :

التيار الأول: يبدأ برفض كل شيء، ويلجأ إلى حيلة نفسية دفاعية هي (النكوص)أى الرجوع إلى الماضى، والحياة فيه كأنه هو الحاضر الحى،ما دام الحاضر فاسدًا كما يصوره أصحاب الأقلام المسمومة، فإن

الشباب ينتقل من الرفض إلى التمرد على الحاضر والماضي القريب، بحثًا عن بديل في الماضي البعيد، في (يوتوبيا).. أما الحاضر فلا يجد فيه ما يستحق البقاء وبالتالي فالقتل والتدمير هي وسيلة الخلاص، وهكذا تندلع شرارة الإرهاب .

والتيار الثاني : هو السلبية ، وعدم الانتماء ، والاغتراب السياسي والاجتماعي والثقافي ، والإبتعاد عن الحياة العامة ، وعدم الانشغال بأمور الوطن ، يحدث فيه ما يحدث فلا يجد لدى هؤلاء اهتماما . بعدما زرعوا في نفسه أن كل من عملوا من أجل الوطن كانوا (نصابين) .. !

أما التيار الثالث : فهو ما نراه من لجوء قطاعات من الشباب إلى البحث عن القدوة ، والمثل الأعلى ، والنموذج ، من خارج المجتمع المصري بكل عصوره ، ما دام الجميع مزيفون ، وما دام الشك قد وصل إلى مرحلة الانكار لكل (حقيقة تاريخية) .. وهؤلاء هم الذين نراهم يعرفون أبطال الغناء والرقص والسينما والسياسة في أوربا وأمريكا ويقلدونهم ، ولا يعرفون نظائرهم في مصر ، ولا يريدون أن يعرفوهم ..

هذا (الكفر) بالماضي والحاضر لصلحة من ؟

قد يقول قائل : أتريد أن يتحول التاريخ إلى تمجيد لكل عصر وكل زعيم على حساب (الحقيقة التاريخية) ؟ وأسارع إلى الإجابة بأن هذا ليس مقصدي ، ولا أتحدث هنا عن حق المؤرخين في أن يتناولوا العصور والشخصيات التاريخية بالنقد ، بحرية عقلية وعلمية لا تقيدها إلا قيود الموضوعية ، والأمانة العلمية ، والوثائق ، والمنهج العلمي .. الخ .. لا أجادل في ذلك ، ولكني أتحدث عن شيء آخر، أتحدث عن الذين يتناولون الأحداث والشخصيات التاريخية ويتوافر لديهم ما يسميه رجال القانون، (القصد الجنائي) أي نية ارتكاب جريمة اغتيال التاريخ والاعتداء على الحقيقة التاريخية .

هؤلاء أمامنا .. نعرفهم .. ونقرأ لهم .. وقد جعلوا أقلامهم معاول هدم تضرب في الأساس الذى يقوم عليه البناء ، بناء العقل والوجدان، والعقل، والضمير، أو أصبحوا مناجل تقطع جذور الشجرة جذرا بعد الآخر، يريدون لها أن تسقط وتتهاوى، وسقوط شعب، أو سقوط وطن، جريمة ليس بعدها جريمة، وأرجو أن يكون مفهوما ما أقصد إليه ، وهو أننى أحترم كل جهد مخلص ونزيه يسعى إلى (الفهم التاريخى) ولا أستطيع أن أحترم جهودًا لا هم لها إلا هدم تاريخنا وأبطالنا وبيعهم (أنقاضًا) لمن يدفع الثمن ، وأحيانًا بغير ثمن .. !

فرق بين (الحقيقة التاريخية) وبين (الخديعة التاريخية) .

لا نطالب المؤرخين والكتاب بمبالغات تجعل كل ما حدث فى الماضى مضيئا ، وتمجيده بالحق وبالباطل ، ولكن نريد إنصاف ما حققه الشعب المصرى من انتصارات دون إغفال الانكسارات، والهزائم والأخطاء ، نريد التوازن فى ذكر الإيجابيات والسلبيات ، فليس هناك عصر كان ظلاما تاما، ولا زعيما كان مخطئا بنسبة مائة فى المائة .

فإن الإنصاف واجب أخلاقى وقومى ، وضرورة لإعادة (التئام الشخصية المصرية) التى تمزقت أو على وشك التمزق . فإن كل عبث فى حلقة من حلقات الماضى لابد أن تفسد الحاضر والمستقبل ، وقد رأينا فى الزلزال الذى ضرب مصر فى أكتوبر ١٩٩٢ أن كل بناء لم يكن قائمًا على أساس سليم تصدع وانهار ، ولم يصمد فى لحظة الخطر ، وكثرت ضحاياه، ولم يبق الزلزال إلا البناء الثابت ، الراسخ ، المستقر على أساس متين .

ونحن نذكر جيدًا ما يقوله العلماء من أن الإنسان حيوان له تاريخ .. فكيف يكون هذا الإنسان إذا جردناه من التاريخ ؟

ثم إن علماء النفس يقولون إنه ليس هناك مجرم مائة فى المائة مهما ارتكب من جنايات ، فالمجرم مهما كانت شخصيته مليئة بالشر ، لابد

أن يكون فيه جانب طيب يكسبه الخير ، كما أن القضاة المشهورين بالعدل يقولون إن ميزان العدل له كفتان واحدة للحسنات والثانية للسيئات ، والله سبحانه وتعالى يحاسب خلقه بما فعلوه من خير وشر ، فما بالنا بالزعماء والقادة . كيف نقبل مواقف الإدانة الكاملة والمطلقة لكل أعمالهم وتصرفاتهم دون استثناء ؟ أليس ذلك ظلم لا يرضاه الله والضمير .. ويسيء إلى الوطن وأبنائه ؟

هذه هى الدوافع التى حفزتنى لكتابة هذه المقالات ونشرت فى (الأهرام) فى أوقات متفرقة خلال السنوات الماضية ، دفاعا عن جذور الشخصية المصرية - العربية - الإسلامية .. ولست أطمع فى أن يتفق القارئ الكريم معى فى كل ما أقول ، ولكنى - للحق - أطمع فى أن أدفعه إلى التفكير فى الخطر الذى أنبه إليه . **ولم أجد داعيا إلى الإشارة إلى تاريخ نشر كل مقال لأنى رأيت أن ذلك لن يفيد القارئ فى شىء ، كما لم ألتزم بالترتيب الزمنى لنشر المقالات ، وفضلت ترتيبها بحسب سياق الموضوعات** ، وقسمتها إلى محاور رئيسية وفقا لطبيعة القضايا التى تطرحها . وان بدا التكرار فى بعض الأفكار فهو من شدة الحرص على أن تكون هذه الأفكار واضحة وأن تصل إلى الأذهان وتتفاعل معها .

ولست فى حاجة إلى القول بأننى لست مؤرخًا، ولا أنازع المؤرخين مكانتهم، إنما أنا صاحب كلمة، أردت أن أقولها، وأمضى ، عسى أن تنفع.. والله وحده هو العليم بالنوايا والمقاصد ، وهو وحده القادر على تحقق القصد ، وحماية مصر من بعض أبنائها ، كما حماها دائمًا من أعدائها ، وهو سبحانه الموفق والمعين .

obeikandi.com